

## بلاسكو ايبانيز

نقل رفاقه من منفاه الى مسقط رأسه

بقلم محمد امين حسونه

رأت الجمهورية الاسبانية وقد تحققت اطماع رجالها السياسية واستفرت حركتها الانقلاية الدستورية، أن تجسد الرجل الذي تقدم الصفوف وتفتح في بوق الثورة، فذهب ضحية مبادئه؛ بعيداً



( بلاسكو ايبانيز )

عن البلاد التي لث نصف قرن ونيفاً مخلص لها الحب، حتى كانت «اسبانيا» آخر كلمة لفظتها شفتاه وهو يعاني آلام الموت في منفاه. فلم تجد أليتي من أن تعيد رفاقه الى وطنه ليضمه ثرى «بلنسية» وهي البلدة التي أنبتت من نواحيها بحر هذه العجربة الفدوة التي تحدث عنها.

فن أسابيع خلقت، احتفلت الحكومة الاسبانية رسمياً بنقل رفات الكاتب الشهير «بلاسكو ايبانيز» من مدينة «متون» (١) بفرنسا، على ظهر بارجة حربية حملته الى مسقط رأسه، وقد كان الاحتفال بوصول رفاقه يوماً مشهوداً في تاريخ اسبانيا، ساهم الشعب فيه باظهار عواطفه السامية، نحو الرجل الذي لبث يجاهد ويضاض ويدرك في وطنه من حرارته وقوته، لتظل قهوة البركان أبداً مشتعلة وهاجة!

عاش ايبانيز طيلة حياته متحزباً ثائراً، لا يهدأ ولا يستقر ولا يعرف لبدنه عليه حقاً، كأنه موئل بتسخير قوى الطبيعة لخدمته حتى قيل: إنه سحابة من نار.

طالع في فجر شبابه كل ما كتب عن الثورة الفرنسية، وكان يشبهها «بالهرة» عندما تجوع لا تلبث أن تأكل صغارها، ولكن الثورة لم تأكل صغارها، بل أكلت زعماءها: داتون، ومارات ورويسير. وكان مفتوناً بروسو وفولتير، يعجب بهما ويقول: هما اللذان مزقت أفكارهما وثائق العبيدية، وبنضال مبادئهما اشتدت روح الثورة، غنادا الأول من ناحية القلب، والثاني من ناحية العقل.

ولد بلاسكو فيسنت ايبانيز في ٢٩ يناير سنة ١٨٦٧ بمدينة بلنسية، وهي حاضرة المطعة المسماة باسمها، وقد اشتهرت بكتدرائيتها الاثرية ومنها خرجت طائفة من اعظم قناني اسبانيا في القرن الرابع عشر، وقبل ان يبلغ العشرين من عمره، اصدر صحيفة اسبوعية كانت تبث المبادئ السياسية المتطرفة في ذلك الوقت، كالجهورية، والدعوة الى الاشتراكية ونحو ذلك، وحدث ان قدم ايبانيز الى برشلونة - مبداء الثورة - ليخطب في حفل سياسي، تناول في خطابه الجمهورية والملكية، واخذ يفاضل بينهما، فعبض عليه رجال البوليس، ولكنه قاومهم واعتدى عليهم فحكم عليه بالسجن. غير انه خرج من السجن وقد ازداد ايمانه بمبادئه وتحفزا الى تحقيقها. فكون (الحزب الجمهوري الحر) وتقدم في ضوء هذه المبادئ الى الانتخابات، ففاز بالاجمع وانتخب نائبا في البرلمان الاسباني عن مقاطعة (بلنسية) ولم يمنعه اشتغاله بالسياسة من ان يتفرغ للادب والكتابة، وهو بلاشك اعظم كاتب ظهر في اسبانيا الى اليوم، خلف وراءه ثروة ادبية زاخرة، تبلغ الثلاثين كتاباً، كل صفحة منها مشرقة اشراق النجم!

(١) تقع في جنوب فرنسا على شاطئ البحر المتوسط وقد اتخذها ايبانيز مقلاً له بعد صدور أمر للدكتور السابق برمودي ريفيرا بغيه وتوفي بها في ٢٩ يناير سنة ١٩٢٨ أي في مثل يوم لادته.

لونا ، ، يطالب بالاصلاح الاجتماعى فيكون نصيبه الاضطهاد من الكنيسة ، فيثور على رجالها ويحتج ويقادر بلده بعد أن يؤمن بأن لا كرامة لثى في وطنه ، ويطوف باوروبا ليشر بمبادئه ، ثم يران السلطات تطارده أينما حل ، فيعود أخيرا الى بلده مقصوص الجناح كبيرا ، ويضطر الى أن يعيش متخفيا مع أخيه الذى يمس خادما بالكندرائية ، ، أى يعود فى كل من حيز الكنيسة التى يصمر لها بغض ، حتى اذا ما اشتد ساعده أخذ يكفر ببعثتها ويؤلب الجموع عليها ، يتخذ من خدامها تلاميذ له ويبيك مبادئه بينهم ، فلا تلبث هذه المبادئ أن تسرى كالسم فى أبدانهم ، يحملهم على سرقة أموالها وتحفها ، ولكنتهم فى خلال السرقة يقتلونه ويمتلون به أشنع تمثيل !

وإبل فن آيانيز يدو قويا واضحا وافكاره مستوية ناضجة فى انقسم السادس من القصة : عندما يحمى وطيس المناقشة بين جبريل واحد اتباعه ، فيبسط امامه حياه اسانا وجود الكنيسة ، يتعرض للفترة الذهبية من تاريخها ، فيذكر ان الاسبانين أعظم من اليونان والبيزانطين ، فهم الذين أهدوا البشرية ، الدنيا الجديدة ، وهم ارستقراطية الشعوب وسادة البحار ، قادوا الرواد فى سياحاتهم حول الكرة وجابوا الآفاق وبعثوا المدينة من مرندها ، ولو أنصف التاريخ لجعل بلادهم وطن العالم الاول !

أما فى قصته رمل ودم ، فهو التهمك الالذع ، صاحب الاسلوب المتدفق النياض ، يرسم لنا فى لباقة وسحر ، حياة مصارعى الثيران فلم يحاول ان يقلل من خطر هذه المصارعة الوحشية ، ولكنه هاجم الارستقراطية التى تنفى مجدها وتسلتها على شقاء هؤلاء المصارعين الذين يطلقون عليهم اسم ، التريادور ، . فبطل هذه القصة ، جوان جالا رادو ، ، قى يخرج من صفوف الشعب ليشرق سريته الى المجد بقوة ساعديه فيتمرن على مصارعة الثيران ولا يلبث أن يذ أقرانه ويتألق بحمه ، وتمسكه شهرته وحياته الجديدة من ان يستمتع بكل ما كان يصبو اليه فى صغره ، يحارب الفقر والجوع ويعم بالزرايع ووفرة المال ، ولكن القوة والشهرة لا تدمران ، فهو يخشى ان يفقدهما عند ما يقف فى ساحة المصارعة حاملا حياته بين ذراعيه ، ويرسم آيانيز الى جانبه صورة أخرى يحملنا على التهمك والازدراء بها : صورة ، كوربتيس ، وجدانية الحس متقلبة الاهواء تدعى ، دوناسول ، ، بعد ان تتزعج جالارادو من احضان زوجته ، تحبه ، وتعبده كبطل وتحاول ان تفرن نجما بمجده

لم تقتصر ثورته على الاوضاع السياسية التى كانت تشكلونها بلاده لغضب ، بل عرف أنه كان هداما فى دائرة الادب ايضا ، يبنى على انقاض القديم وجوده ، أدبا جديدا حيا له طابعه وعيونه الخاصة ، والحقيقة ان البصر الذى بدأ فيه آيانيز حياته الادبية ، كان فى حاجة الى من يقوض اركانه ، وكان يقول : نحن فى حاجة الى الثورة الادبية التى تدفعنا الى كشف مواطن الجمال وتودى بنا الى النور . ولكن هل أثرت تعاليم آيانيز حقا فخرجت الادب الاسبانى من الظلمة الى النور ؟ إن من يتذوق ذلك الفن العميق الرائع الذى خلقه آيانيز فى قصصه الممتعة ، امثال : فى ظل الكنيسة ، وامرأة وجوياء العارية ، وفرسان الرؤبا الاربعة ، وفاجعة البحيرة ، ومجرنا ، وزهرة مايو ، واعداء المرأة ، ورمل ودم ، والاراضى المجهولة الخ ، ذلك الفن الذى كان يعتمد فى ابرازه على جمال التنسيق ودقة الوصف ، وارهاف العاطفة ويكسوه باشباع الروح الدرامى الغامر ، حتى يجتهدنى أن يجعل من أدبه مرآة صافية لفننه الجميل ، تنعكس عليها مختلف الصور والاحاسيس ، فتشعر وأنت تطالع قصة له أن شعورك ووجدانك مرتبطان تماما بمحواتها ، وانها تمثل بلاده ونفسيها أبلغ تمثيل ، وقد لا يصرفه كلفه باللوحه ومحاوله اظهار ، كما من الفتنة فى الصورة ، عن العناية بالاطار نفسه ، فتجده يقتصص المعانى ويصقل الالفاظ كما يصقل النحات الأحجار قبل البناء ، وولمه بالطبيعة يدفعه الى أن يجارى ( زولا ) في رسم أبطالهم يعيشون بين مهادها بعيدين عن تلك العاطفة الزائفة التى تولدها الحياة المصطنعة فى المدن ، كما أن إعجابهم بالبحر المتوسط — مهد جميع البطولات والأديان — يوحى اليه أن يجد من أعمال رجاله ، عوليس ، وبركليس ، ودهنيال ، والاشادة بشجاعة فرسانه ، ر لك فى قصته الخالدة Mare Nostrum

لفت آيانيز انظار العالم الاوروبى الى فنه خاصة ، والى الادب الاسبانى عامة ، فترجمت مؤلفاته الى اللغات الحية وأولع الفرنسيون بقصصه ففقدوا وسام « جوقه للشرف » ، وهتف له شيوخ القعدة : فوصفه كورتوس النقادة الالماني « بأن فنه عياره عن مأساة الخير والشر » ، وقال أحد القصصيين الامريكين ، لقد بدأ آيانيز ينافسا فى صناعتنا ، والافوق أن نخطم أفلامنا ونبحث عن صناعة غير الادب لتعيش ، !

وقد غرست مبادئ فولتير فى نفسه كراهية رجال الدين والسخرية من أعمالهم ، فى قصته المسماة Dans l'ombre de la Cathedrale « فى ظل الكندرائية » ، يصور لنا مفكرا اشتراكيا هو ، جبريل

الوجه الذين وصلوا الى إسبانيا في القرن الثامن من شمال أفريقيا بعد ان سيطروا في اتصاراتهم على أرقى الشعوب ، حلوا اليها الحضارة والتمدن ، حضارة اجيال امتزجت بعض ، توامها فلسفة الهند وثقافة الفرس وآداب اليونان وفن البيزنطيين وأشياء اخرى من الشرق ومن الصين .

« احتضنت اسبانيا العرب ، ومكنتهم في مدى عامين من ان يستولوا على حضارة سبعة اجيال ، رحب الشعب بهم لانهم فكوا وثاقه من استبداد ملوكه السابقين ، وكان استعمارهم استعمار الحضارة والتور والتسامح الديني لاستعمار الوحشية والسلاح !

« وعندما استوطن العرب اسبانيا ، جعلوها . . كالولايات المتحدة الأمريكية ، في العصر الحاضر ، تعيش فيها جميع الاديان في حرية ومساواة ، من غير تمييز ولا تعصب ، وفي الوقت الذي كانت شعوب الشمال تعيش في ظلمات الجهالة وتطاحن في الحروب الدينية وتختلط بالاقوام البربرية ، كان العرب والاسبان واليهود ، يعيشون كتلة واحدة في ونام ، يعملون في سبيل اسعاد اسبانيا ورفادية شعبها ، قتأست دور العلم والجامعات وازدهرت الفنون وارتقت العلوم ونشطت الموارد الاقتصادية وبدأت اسبانيا تستيقظ لتشهد أنوار فجر جديد !

« وماذا عمل ملوك الكتلثة الذين أتوا إلينا من الشمال بعد ذلك ؟ نشروا الارهاب ومحاكم التفتيش ، أجلوا العرب واليهود ، طردوا العبقريّة والحضارة ، واحلوا مكانهما : الدين والتعصب ، أطفأوا مصابيح العلم التي كانت تضئ من المساجد الاسلامية والبيع اليهودية ، ليضعوا مكانهما قناديل الجهل والجمود وخرافات رجال الكنيسة ، وعندئذ بدأت اسبانيا تتلاشى من العالم وتموت . »

يتشعب بنا الحديث لو شئنا أن نتحدث عن ايبانيز لنوفيه حقه ، وخير لنا أن نرجىء هذا الى فرصة يكون فيها المجال أكثر اتساعا ، وانما نختم هذه الكلمة بأن نقول ، إنه لما شبت نار الثورة الاسبانية الأخيرة التي انتهت باعلان الجمهورية ، كان ايبانيز في مقدمة من ينيرون الخواطر ضد دكتاتورية الجنرال برمودي ورفيرا ، فاشتدت الخصومة بينهما ، وكان ايبانيز عزوفا عن الضيم قاتم الملكية ووطنيتها ، وكان هذا هو السبب في ابعاده عن اسبانيا وفيه ؟

محمد أمين حسونه

وشهرته ، ولكن عندما تحس بالفارق بينها كأمرأة استقرابية تحضر أصلاب الاشراف ، ويته كرجل من عامة الشعب . تحتقره وتتخلى عنه ، فيهوى نجمه ويفقد توازنه وهو في ساحة المصارعة فينشب التورقنيه في صدره ولا يلبث ان يقع مضرجا على الارض حيث تسيل دماؤه وتمتزج بالرمال ، يحملونه الى الخارج جثته هامدة ولكن الجمهور لا يلبث بعد قليل ان يصفق ويصيح طالبا مشهدا جديدا ليشبع نهمته ويرضى غريزته التي طبعت على ذلك ، منذ أن شهدت الدماء الاولى وهي تجري على الارض : دماء هاييل .

\*\*\*

وايبانيز قوى الايمان بروح الحضارة العربية التي سادت اسبانيا وظلت ترفرف فوق ربوعها زهاء ثمانية قرون ؛ تلك الروح المتوقدة التي فذت الى الغرب فعلته كيف يخلق من الحب أدباً عالياً ومن المرأة صنما معبودا ، ما برحت تمد المعجم الاسباني بريع مفرداته وان تشع أنوار خيالها فقلب قرائح كتابها وتسعر بحرارتها دماغهم فتدفعهم الى كتابة دون كيشوت ، وكونده لوكاتور ، وغيرهما مما نرى آثار الفروسية العربية كامنة بين سطورها ، بل إن أثر هذه الروح ليدو واضحا تماما في مؤلفات وأشعار سلفادور ، رويدا ، والفريديو بلانكو ، وبيرس فالتي وغيرهم من زمام متأثرين بالخيال العربي الباهر لقد صهر بلاسكو ايبانيز نار عاطفته المشبوية تخيلاته عن

حضارة أجداده العرب : فاودعها في بعض قصصه ودافع عنها في حماسة ويقين ، فهو وإن كان يكتب بلغة اسبانية ، الا أنه كان يشكر قبل كل شيء بروح عربي ، وقد خاف وراه أنصارا يحاولون اليوم جهدهم تحقيق ما كان يبصر اليه من اعادة الحضارة العربية الى الفردوس الاسلامي المفقود ، كي تتعش النهضة الحاضرة من ترأثها الخالد ، واعادة التعليم باللغة العربية . مفتاح الثقافة الاسلامية في اسبانيا - ونشرها بين الجامعة ودراسة آدابها العالية ؛ وسوف يكون شأنهم بالنسبة لها في اوربا شأن الموارد عندما خدموها في

الشرق خلال العصور الغابرة

ينشر ايبانيز ظلال أفكاره هذه على صفحات روايته ( في ظل الكنيسة ) فقرأه يمجد من شأن هذا الروح العربي ويصف شعوره على لسان احد ابطال قصصه فيقول :

« ان تاريخ اسبانيا الباهر لم يأت اليها من الشمال ولا من الكنيسة ، بل من الجنوب ومن العرب ، هؤلاء الرجال سمر